قصة

ضريح

شهيدة الأمانة

كانت الساعة الواحدة بعد الظهر حين استظل الصياد وحماره القبرصي الصغير المسمى صفداً وكلبه مرجان وكليته زمردة بمجموعة من الشجر والآجم على مقربة من البحيرة . وألقى عند جذع الشجرة اثنتي عشرة بطة وهي ما اصطاده منذ الصباح . ثم قدم العلف لحماره وكلبيه ثم لنفسه .

وبعد فيما رتله قال للكلبة : احرسي الصيد يا زمردة وحاذري أن يقترب منه أحد . ولا تدعي الحمار صفداً يبتعد كثيراً في المرعى أو الهشيم . أنا ومرجان عائدان الى الصيد في جولة ثانية . هل فهمت ؟

فحركت زمردة بذيلها ولوت عنقها وتبحث بحثاً لطيفاً فعلم الصياد انها فهمت أمره وهي والكلب مرجان من نوع كلاب الصيد الفضة الفضة النشيطة . وهما يكادان يصارعان الأسد قوة وضراوة حين يغضبان في موضع الغضب . وينامان الليل وداعة في حال الرضى وربضت زمردة الى جنب البطات تهضم طعامها وتنظر الى الحمار يقضم علفه .

وبعد حين لفت نظرها صوت ، فرأت ابن آوى على مسافة عشرين ذراعاً يقول لها : يا ابنة العم اني جائع منذ أمس الأمس وعندك كثير من الصيد ، فجودي علي ببطة .

فصاحت به : أقلع عينيك وأقمع عقدة حنجرتك إذا دنوت مني .

فقال : هل البطات معدودات عليك فتخافين أن يكتشف سيدك واحدة ناقصة .

فقالت : صدقاً يا ابن عم . معدودات أو غير معدودات ، أفلا أعلم أنا انها نقصت واحدة إذا أعطيتكها ؟

— إذا كان صاحبك لا يعلم فمن يعاقبك ؟

— اخرس . لا يعاقبني أحد غير ضميري . صاحبي أمّنني على صيده لأنه يعلم أني أمينة . والأمانة خلقة فيّ . فلا أستطيع أن أخون .

قال : لو جعت ألا تأكلين بطة من هذه البطات ؟

قالت : لن آكل ولو مت جوعاً . آكل متى أطعمني صاحبي . قال حقاً إنك مغفلة . إذا وقع تحت يد صاحبك وزنات من الذهب بعد هذه البطات أفلا يختلسها ؟

قالت : لا أعتقد أنه يفعل . لأنه تعلم الأمانة مني .

قال : ولكن هناك ألوفاً من البشر خونة يأكلون بعضهم بعضاً ولا يمنعهم عن الاختلاس والخيانة إلا السبب .

قالت — لأنهم لم يتعلموا الأمانة من الكلاب ولا ارتقوا بعد الى درجة الكلاب في الأخلاق . ما زالوا بشراً منحطين أخلاقاً في درجة الثعالب وبنات آوى .

— حقاً وإنك أنك غبية جداً . أيكون منحطاً هذا الانسان الذي استعبد وذكاؤه أن يصطاد هذه البطات عن بعد عدة أذرع بقذائف ومفرقعات ؟ أيكون منحطاً هذا الانسان الذي غاص البحار وغور الصحاري والقفار وركب الهواء وسبح في الفضاء واعتقل الأصوات والأضواء و ...

كفى كفى يا خداع . أجل فعل كل هذه ، ولكنه لا يزال منحط الضمير حقير النفس ولا بد من مرور عشرة آلاف سنة عليه حتى يصير أميناً مثلي . وقد مر عليه ألف ألف سنة منذ كان خبيثاً مثلك .

— ومنذ كم سنة كان انسانك مثل هذا الحمار ؟

— الى الآن لم يصر مثل هذا الحمار في الوداعة والمسالمة والصبر .

— إذاً أنت يا جاهلة عبدة لانسان أحط من الكلاب اخلاقاً ألوف السنين ودون الحمار وداعة . كان يجب أن تكوني أنت السيدة لأنك أشرف خلقاً وهو العبد لأنه أحط طبعاً

— لست عبدة للانسان بل أنا صديقة له وصاحبته . وكلانا نتبادل الخدم . أنا صاحبة البيت وهو ضيفي . وإذا لم يكن مخلصاً وأميناً لأخيه الانسان فهو لي أخلص الخلصاء لقد تعلم الاخلاص مني . نحن معشر الكلاب أساتذة البشر في الأمانة والاخلاص والصدق .

فقال : أليس عجيباً أن هذا الانسان الذي « شطح » عقله هذه « الشطحة » العجيبة حتى إنه تبوأ عرش الطبيعة وتسلط على عناصرها وقبض على نواميسها واعتقل قواها بلغ القمة ذكاء وينحط إلى الدرك أخلاقاً . أليس هذا سراً غامضاً ؟

فقالت زمردة : حقاً إنه لسر غامض . ولكن يلوح لي أن الانسان كلما ارتقى عقلاً وذكاءً نبغ في المكر والدهاء والدهس . وهذه أدوات الشر والفساد ، فهل أنت والثعلب أمكر الماكرين وبالتالي شر الشريرين .

وإذا بالثعلب مطل من وراء جذع شجرة فقال له ابن آوى : تعال اسمع هذيان هذه المنسة

قال الثعلب سمعت الحديث من أوله . فهي غبية مخدوعة بهذا الانسان الذي يأكل لحم البطات ويرمي لها العظام . ونحن نستطيع أن نفعل مثله نأكل اللحم ونرمي لها العظم .

فنشطت زمردة ونزلت وسخطت قائلة : والله أقطُّ عنقيكما بمثل لمح البرق كما تقط السكين القلم . وهجمت عليهما . فجزعا وهرعا وهي تسمع الثعلب يقول : سفيت لها مكيدة تدق عنقها ونظفر بالبطات . وعادت بعد أن توارتا .

وبعد برهة عاد ابن آوى والثعلب وخاشاها من بعيد . فقال الثعلب : سمعاً يا هذه . نصيحة لوجه الله . عجي بالرحيل الى شاطىء البحيرة لأن النار لعبت بطرف هذه الغابة ، والريح تهب الى هذه الناحية وستلتهم الغابة كلها ويلتهب هذا الهشيم الذي عوننا فارحلي عاجلاً ونحن نعاونك لنقل البطات .

فصاحت : لا تتقدما وإلاَّ تضمت أوتار عنقيكما .

فقال الثعلب : أهذا جزاء نصيحتنا يا قبيحة . النار تضرب بأوراق الشجر والريح تسفيها الى هذه الجهة .

— نصيحتكما يا خادعين يا خائنين ؟ أهذه هي المكيدة التي بيَّتاها لي يا منافقين ؟ أتظنان أني اصدقكما ؟ حتى الصدق منكما لا أصدقه .

— إذن فأبقى هنا إلى أن يكذب صدقنا أو يصدق كذبنا . ثم تندمين على تكذيبنا حين تلعب النار بجلدك ثم بلحمك . كن شاهداً أيها الحمار على كذبنا وصدقها . وان كنت أعقل منها تقبل النصيحة لنفسك .

قال الحمار : لا أقبل النصيحة إلاَّ بالبرهان حين أشاهد النيران مشاهدة العيان .

— إذن فأبق مثلها في ربيتك إلى أن لا تعود تنفعك توبتك . فما أنت أقل سفاوة منها . أفما أنت حمار ؟ وهل يمكن وصفك بغير حمار ؟ وهل من حيوان «أحمر» من الحمار ؟

وما مضت بضع دقائق بعد ان مضى ابن آوى والثعلب حتى سمعت الكلبة لعلعة اللهيب ورأى الحمار قرقعة النار . فدهشا وشذها ، وجعلت زمردة تثب حول البطات هنا وهناك والحمار يتمنص وهو يصرخ لها : يربك اقضي رمسي أو حلي رباطه عن ساق الشجرة أو عن رقبتي . إني أفزع من لعلعة اللهيب .

فقالت : ما هذه النار إلاَّ فعلة ذينك الشريرين ابن آوى والثعلب . لعنة الله عليهما .

وما عتمت ان شدَّت طرف الرسن فانحلت عقدته وصار الحمار حرًّا فقال لها : هلمي بنا . اللهيب سترسل الى هنا .

أما هي فصارت تحوم حول البطات وتثب هنا وهناك . وكانت ريح صرصر عاتية

تسفي الهبيب الى ناحيتها . واشتدت الريح وصار الهبيب يندلع من فنن الى فنن ، كأنه البرق الخاطف . كان وراءها فإذا هو يلسع قدامها .

أما الحمار فأسرع خارجاً من الغابة الى الغيط والتفت هي أن يرى زمردة خارجة وراءه ظافرة بسلامتها . ولكنه لم يرَها ولا سمع لها نباحاً فظنها تخرج من ناحية أخرى من الغابة . ولكنه لم يرَ إلاَّ ابن آوى يثب هنا وهناك في الغيط أمام الغابة يعوي . فلما تقابلا قال ابن آوى ، أما رأيت ابن عمي الثعلب ؟

— لا . لعله بقي في الغابة فأكلته النيران .

— لا تخف على هذا اللئيم فقد كان أسرع من الريح في الخروج . ولكني أظنه وقد انطفأت النار وخمدت حرارتها عاد الى البطات ليأكلها مطبوخة . أين زمردتك ؟

— والله لا أدري لعلها خرجت من الغابة الى ناحية أخرى ثم رجعت بعد انطفاء الحريق لكي تحمي البطات من شركما .

— انها مفتولة بالأمانة والولاء فلابدَّ انها راحت ضحيتها . فماذا صارت قيمة ولائها ووفائها ؟ . مسكينة بنت النعم . كم قاست وهي تحترق .

فقال الحمار — لا أظنها تألمت . أظنها ماتت اختناقاً قبل أن تحترق لأن الهبيب استنفد كل اوكسجين الهواء فلم تعد تستطيع التنفس أو تتنفس هواء بلا اوكسجين .

— لله درك من حمار فيلسوف كيا وي .

فقال الحمار : بالله تقول لي أليست هذه الحريقة فعلتكما انتقاماً من زمردة ؟

— حقاً انك لحمار تارةً وفيلسوفاً تارةً أخرى . أنى لنا النار حتى نضرم الهشيم والأشجار

— إذن كيف التهبت هذه الغابة ؟

— كان صياد يشوي صيده في طرف الغابة الآخر . فلما هوى وأكل ومضى سفت الريح بقية الجمر الذي تركه . فوقع الجمر على العشب اليابس فالتهمه . وثمت اندلع الهبيب في الغابة . وكنا نحن نراقبه على أن يكون لنا نصيب من صيده . فخاب مؤملنا ولم يبق لنا عشم الاَّ بصيدكم . اني سترث الى أن تبرد حرارة الحريقة فأقصد الى حيث كنتم لعلي أصيب وليمة طيبة .

— وإذا كانت زمردة قد رجعت الى هناك تنشد أيابها في « زورك » يا غبي

— إن زمردة أصبحت فحمة . فقد قضى القضاء والقدر محرقة على مذبح أمانتها . والأمانة لم تنتفع شيئاً من هذه الضحية . هل أنت شريكها في عقيدة هذه الأمانة .

— طبعاً . اني أميل لحادي الانسان لأني صاحبه ونحن نتبادل المنفعة

لما رأى صيادنا من بعيد دخان الحريقة يغمر تلك الناحية جزع إشفاقاً على زمردة

والحمار . فقال لكلبه : هلمَّ يا مرجان . العودة إلى حيث تركنا زوجتك الصالحة .

وكأنَّ مرجان قد أدرك أن رزقاً ينتظره . فأسرع أمام الصياد وهو ينبح ويقفز بين الحمر والصياد وراءه ، الى أن بلغا إلى البقعة التي كانت مستودعاً لحبيبتهما . فإذا رأيا ؟

وثب مرجان على زمردة فإذا هي جيفة «مفحَّمة» ملقاة على البطات . وجعل يبكي كالطفل أما الصياد فوقف ذاهلاً ودموعه تتساقط كالمطر . ولم يسعه إلاَّ أن يشترك مع مرجان بالعويل .

ثمَّ جثا وألقى كفيه على جذع الشجرة ورأسه بين يديه . ثمَّ صلَّى . وفعل مرجان مثله

« سبحانك اللهمَّ جعلت من الحيوان الأعجم قدوة لنا في الأمانة والوفاء . ولكننا لا نتعلم هذه الفضائل ما لم تمنحنا أنت من لدنك روح الفضيلة ، حقاً يا أله لا يزال البشر حيوانات منحطة في الأخلاق فرقِّهم إلى أخلاق الكلاب . فعسى أن تقل شرورهم وتكثر فضائلهم . أنت السميع المجيب

ثمَّ وقف وارتدَّ قليلاً : فارتدَّ مرجان وهو ينظر إليه ليرى ماذا عساه أن يفعل . فجعل يضع صيده القديم مع صيده الجديد في كيسه . فما كان من مرجان إلاَّ أن وثب عليه وجعل يخطف البطات المحترقة . ويقذفها بعيداً . ففهم الصياد أن مرجان لم يعد يطيق رؤية البطات التي كانت زمردة شهيدة في سبيل حمايتها .

فرماها الصياد . ثمَّ حفر حفرة ووضع جثة زمردة فيها لكي يدفنها . ولكن مرجان انتشلها من الحفرة ونبح نباحاً شديداً كأنه يستنكر أن يتركها دفينة هناك

— أين الحمار يا مرجان . الحمار الحمار

فأسرع مرجان الى خارج الغابة وهو ينبح وبعد قليل عاد يسوق الحمار أمامه . فوضع الصياد جيفة زمردة على ظهر الحمار . ومضى الى داره

وفي حديقة الدار حفر قبراً لزمردة ودفنها فيه ووضع عليه زهوراً . وأما مرجان فمكث أمام القبر ليلاً ونهاراً . وكان أحياناً يقطف الزهور من الحديقة ويضعها على القبر . ولم يكن مرجان ليقبل طعاماً . فكان الصياد يضع له الطعام على القبر فيفسد ولا يمسه .

مضى عشرون يوماً على مرجان صائماً ملازماً قبر زمردة إلى أن مات

فدفنه الصياد إلى جنب زوجته وكتب على ضريحه في لوح من المرمر

« هنا ضريح شهيدي الأمانة والوفاء » .

فأصبح الضريح مزاراً لأصدقاء الصياد الذين قرأوا هذه القصة . فهل اعتبروا بهذه العبرة .